الباب الرابع

فلسطين خلال العصر الحجري النحاسي

(٥٠٠٠-٣٠٠٠ سنة ق.م.)

قامت خلال هذا العصر عدة حضارات هامة متصل بعضها ببعض أهمها: أريحا-ووادي غزة-والغسولية-وبئر السبع-ومجدو-وبيت شان-والخضيرة-وتل الفارعة-وتل جازر، حيث تطورت الحياة في جميع مظاهرها، واكتشف معدن النحاس، وظهرت الزراعة المعتمدة على الري، وقد شملت عدة أنواع من الخضراوات وهي الخس والبصل والثوم والحمص والفول والتوابل.

ويعتقد أنها أثرت في ارتفاع قامتهم وقوة أبدانهم قياساً إلى من تقدموهم من أسلافهم، ويمكن القول إنهم كانوا مزارعين بالدرجة الأولى، وقد عرفوا إلى جانب زراعة الحبوب، زراعة الزيتون، والنخيل، أما حياة الصيد فكانت بالنسبة لهم شيئاً ثانوياً(١).

كما كانوا يزرعون العنب والتين، وقد عثر مكالستر على حفر ذات تجويف خصصت لعصر العنب والزيتون، وقد عثر على معاصر الثمار المنقورة في الصخر، في أماكن متعددة وخاصة مدينة الخليل.

وأهم آثارهم المعمارية تتكون من منازل ومعابد وأضرحة. فالمنازل في الغسولية، وقد بنيت جدرانها من الطوب اللبن المتوسط الحجم على أساس من الحجر، أخذ من المنطقة نفسها، وقد غطيت سقوفها بالقصب وأغصان الأشجار، وامتاز فن المعمار بالأبنية الكبيرة الحجم والتخطيط المعماري المستطيل، وبعض المباني تقابل منازلها باحة، وقد أحيطت المنازل من الخارج بأسوار، وبعض منازل الغسولية شيدت أسسها وجدرانها من الطوب اللبن. وأما السقوف فقد استخدموا الخشب في تغطيتها لوفرته في المنطقة نفسها. وكان لهم معابد في الغسولية وتل جازر وبيت شان والخضيرة وغزة وبئر السبع.

واهتموا ببناء الأسوار حول مدنهم، ومنها تل جازر حيث أحيطت بسور من الطوب الخشن وبقيت مدينة أريحا محاطة بأسوار عالية وخنادق مملوءة بالماء وبرج حجري يحمي المدينة.

وفي بئر السبع حفروا منازلهم داخل الصخور، ويؤدي إليها ممر أو ممرّ، والممر يؤدي بدوره إلى غرف جانبية وقد حفرت في الصخر.

كما عرفوا التصوير الجداري: -حيث رسموا على جدران مدينة الغسولية لوحات تصويرية متعددة الألوان، وتعتبر أقدم فريسكو في العالم القديم (٢). وأسلوب هذه اللوحات يتميز بالطابع الزخرفي الهندسي، وأهم هذه اللوحات، لوحة "النجمة الثمانية".

وكانوا يرمزون بهذه النجمة إلى كوكب الزهرة، وكانت هذه معبودة لديهم كما

كانت إلهة الخصب. وقد قلدها اليهود فرسموا نجمة سداسية. نقلاً عن النجمة الثمانية الكنعانية التي يعود تاريخها إلى ٤٥٠٠ سنة ق.م.

وظهرت هذه النجمة الثمانية في الزخرفة الإسلامية على أيدي فناني فلسطين وسوريا الذين قاموا بتشييد مسجد قبة الصخرة وزخرفته. وهذه النجمة ما زالت تظهر حتى أيامنا هذه على الأزياء الفلسطينية المطرزة وتعتبر من أساسيات زخرفة فن التطريز الفلسطيني المعاصر.

وهناك عدة لوحات مرسومة، منها لوحة تمثل طائراً ملوناً يحاكي الطبيعة، ولوحة ملونة تمثل رجلاً يجلس أمامه شخصان، يلبس أحدهما حذاءً مطرزاً (٣). وبهذا فقد عرف التطريز بفلسطين منذ ٤٥٠٠ سنة ق.م.، كما رسموا أشكالاً آدمية وحيوانية على سطوح الأحجار، حيث عثروا في مجدو على رسوم تمثل ذلك، كما عثروا على (دلايات) مرسوم عليها، منها دلاية تمثل فتاة وبيدها زهرة، ويعود تاريخها إلى الألف الرابعة قبل الميلاد.

وعثر المنقبون على تماثيل نذرية تمثل البقر والماعز والأغنام وعلى تمثال يمثل جسد امرأة عثر عليه في بئر السبع. وهذه تمثل إلهة الخصب عناة أو عشيرة الكنعانية. هذا وقد قدسوا الحمامة ونحتوا لها تماثيل، وقد لازمت كهنة المعابد الكنعانية خلال العصور التاريخية وقدسها الفلاحون في فلسطين لصوتها، يقولون إنها مباركة وتسبح ربها.

كما عرفوا صنع الفخار ومهروا في زخرفته وهو نوعان: الأول الفخار

الجنائزي والثاني الفخار الدنيوي. والفخار الجنائزي: يمثله المدافن أو التوابيت الفخارية، وبعضها على شكل بيوت وترتكز على قوائم أسطوانية أربع ولها سقف دائري وهو غير مزخرف، وتوابيت أخرى مؤلفة من صندوق مستطيل من الطين، يميل من الأعلى مثل "الجملون" وعليه زخارف على أسلوب اللوحات الجدارية التي عثر عليها في مدينة الغسولية، وقد وجدت بالقرب من قرية الخضيرة على الساحل الفلسطيني.

وزخارف هذه التوابيت ما زالت توضع على الأزياء الفلسطينية المعاصرة. وقد عثر في تل الجزر بالقرب من أبو شوشة، على أوانٍ فخارية مملوءة بالطعام والشراب بجوار الموتى، وهناك جرار فخارية كان يوضع بها الأطفال الموتى ويدفنون تحت أسس المباني والهياكل أو المعابد، عثر عليها في تل جازر وبيت شان والغسولية وأريحا. وما زالت هذه العادة الكنعانية العربية تمارس لدى الفلسطينيين فعندما يموت طفل دون السنة، فإنهم يضعونه داخل جرة فخارية ثم يدفنونه. وهذه العادة الأسطورية تعطي دلالة على استمرارية شعب واحد عربي كنعاني على هذه الأرض.

وأما الفخار الدنيوي: فقد عثر على أعداد كثيرة منه في بيت شان وتتميز بلونها الأسود، والرمادي المصقول، والأيدي المموجة. وقد وجد منه نماذج في مصر السفلى ويعود تاريخها إلى عصر ما قبل الأسرات، كما عثر في مجدو على أقدم أنواع الفخار المزين والمنقوش بزخارف كثيرة والملون وبه تطعيم، ويعتبر فخار أريحا من أجمل أنواع الفخار، ويتميز بتعدد أشكاله وتنوعها، وما زال بعضها بشكله حتى الآن دون تغيير ومنها الإناء المعروف باسمه الشعبي "الزبدية–صحن أبو عشرة اللقان" وكذلك الإناء المعروف باسم "البوشة والبقلوشة والزير".

وهذا الحفاظ على الشكل دلالة على الاستمرارية دون انقطاع... وهكذا يتضح لنا من العرض الموجز لفلسطين خلال العصر الحجري النحاسي، أن شعبها كان عربياً كنعانياً وأن هذا الشعب له ارتباط بالشعب العربي الفلسطيني المعاصر، بدلالة محافظة أهل فلسطين المعاصرين على صناعات وعادات أجدادهم الكنعانيين العرب.

أهم المراجع:

(١) –د. وليد الجادر، دراسة مترجمة في حضارة العراق والشرقين الأوسط والأدنى القديمة، مجلة الأقلام، بغداد، العدد السادس، ص ٧٣.

(٢) –عبد الرحمن المزين، رسالة الماجستير، الفن التشكيلي في فلسطين عبر التاريخ ١٩٧٥، جامعة حلوان، ص ٨٥.

(٣) –د. وليم ف. أولبرايت، آثار فلسطين ص ٧١، مترجم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧١م.